جرائم خطف الأطفال في السينما المصرية

محمود قاسم
كاتب ومؤرخ - مصر

> غالباً ما يكون سبب الخطف طلب فدية وعمر الطفل المخطوف أكبر من ٥ سنوات

ينظر الكثير من المجرمين في المجتمع العربي إلى الأطفال على أنهم سلعة تجارية؛ يمكن من خلال اختطافهم وتحويلهم إلى رهائن كسب مبالغ مالية تكفي لبعض أطماعهم في استكمال مسيرتهم الحياتية ، ولا يمكن أن نقول إن هذه الجرائم تنبع من البيئة العربية وحدها، ولكن كم من أفلام شاهدناها في السينما العالمية تدور أحداثها حول اختطاف الأطفال والهروب بهم، والبحث عن فدية مناسبة، بل إن بعض الأفلام العالمية تحكي عن هروب الآباء (الأم أو الأب) مع طفل من أبناء الطلاق، بسبب مواقف القضاء المتعنتة، وربما سوف نفرد لهذا الموضوع نقاشاً فيما بعد، لكننا الآن نتوقف عند قيام عصابة إجرامية بخطف طفل صغير السن، وطلب فدية، وتفاصيل حكاية من الخطف حتى إطلاق سراح هذا الطفل الصغير، وهناك مجموعة من السمات التي يتكرر وجودها من عمل إلى آخر ..

ومنها على سبيل المثال:

أولاً: غالباً ما يكون الطفل المخطوف فوق سن الخامسة، بما يعني أن هذا المخطوف يجب أن يكون منتبهاً إلى قسوة الموقف الذي سوف يتعرض له، وفي فترة ما يمكنه أن يتعرف إلى هوية الخاطفين، وربما يصبح قريباً منهم، بما يعني أنه قادر على أن يتكلم؛ ما يمنح الفيلم فرصة للحوار المليء بالتناقض بين براءة الصغير وقسوة الرجال الخاطفين.

ثانياً: غالباً ما يكون سبب الخطف هو البحث عن فدية كبيرة؛ ما يعني أن الطفل الصغير ينتمي إلى عائلة ميسورة، وأنه يسكن في بيت مؤثث بشكل جيد، فالخاطفون عادةً ما يقومون بإخفاء الصغار في مكان آمن يفتقر إلى الآدمية، وهناك أمثلة عديدة لهذا، منها فيلم **«ملاك وشيطان»** إخراج كمال الشيخ سنة 1960 حيث إن الطفلة «نادية» شخص بالغ الرقة واللباقة والأناقة والبراءة، وهي تجد نفسها بين أيدي رجال عصابة، يتسمون بالخشونة، والقسوة، والملامح المشوهة، يقومون بربط يديها، ويرمون بها في مخزن يخلو تماماً من كل آدمية، وفيما بعد يتسلّمها واحد من هذه العصابة لا يقل غلظةً عن زملائه، لكنه متزوج بامرأة يحبها، هذه السيدة تسبغ كل حنان الأمومة على الابنة، وتنجح في تحويل مشاعر «عزت» إلى مقت ما كان عليه، فيسعى إلى إنقاذ الصغيرة وتوصيلها إلى باب بيتها، بعد أن يدخل في صراع دامٍ مع العصابة ينتهي بسقوط ضحايا وموتى، يتم كل هذا تحت أعين تلك البنت، فأبواها متحابان يعيشان في رغد ملحوظ، ومستعدان لدفع الفدية. هذا التناقض الذي نراه بين شخوص الفيلم يجعلنا نتعاطف بشدة مع حالة الخلاص التي يمر بها ذلك الغليظ عزت، فالبنت تنقذه من ثعبان سام قبل أن يلدغه، رغم أن عزت حاول أن يضع لها السم في اللبن، لكن قط المنزل هو الذي لعق السم ومات.

رأينا هذه المواقف في أفلام عديدة، منها فيلم **«بطل للنهاية»** إخراج

حسام الدين مصطفى سنة 1962، الذي يدور حول رجل ثري يتظاهر أمام أعضاء النادي بأنه يفتقد وجود الأطفال في حياته، ويحبهم ويمنحهم الهدايا، ولكنه في الحقيقة يتزعم عصابة لخطف الأطفال مقابل طلب فدية كبيرة من آبائهم وتحصيل هذه الفدية وتكرار هذا النوع من الخطف من أسرة إلى أخرى، وأحد الأطفال المخطوفين هنا مصاب بالشلل ويجلس فوق مقعد متحرك، ويعاني أبوه نقص المال فيندس بين أفراد العصابة ويتمكن من إنقاذ ابنه ، في هذا الفيلم رأينا كل السمات التي تنطبق على عملية الخطف: الولد في العاشرة من العمر، ولا يستطيع الدفاع عن نفسه، فهو من أصحاب القدرات الخاصة، كما أن الدوافع لعمليات الخطف لا يمكن تصديقها بسهولة، ربما لأن زعيم العصابة واقع في غرام امرأة متزوجة تصغره بسنوات وتبتزه لطلب الكثير من المال. كما أن الفيلم يدور في أجواء الأندية الاجتماعية، تلك الأماكن المليئة بالأطفال الذين يأتون دوماً للبحث عن اللعب واللهو لكنهم يتعرضون للمخاطر.

ثالثاً: هناك أفلام تدور حول الحياة الأخرى لأطفال بلا أسر، اضطروا إلى الهروب من بيوتهم، ويعيشون مع عصابات إجرامية، فيتعلمون كيف يسرقون في الأماكن العامة ووسائل المواصلات، مثلما حدث في أفلام ، منها: **«جعلوني مجرماً»** إخراج عاطف سالم سنة 1954، و**«العفاريت»** إخراج حسام الدين مصطفى سنة 1991، هؤلاء الأطفال مخطوفون باختياراتهم، باعتبار أن الظروف دفعت بعضهم إلى الانضمام لعصابة، أو أن المجرمين دفعوا بهم إلى غريزة العصابة التي تنتفع بمهارة كل منهم.

في الفيلم الأول يهرب طفل من منزل أخته المطربة، ويتحول إلى متشرد، ويقابل بائع اللبن «سلطان» خريج الإصلاحية الذي يتعاطف مع الطفل ضد رئيسة العصابة، ويسعى بكل ما لديه من تجارب سيئة إلى إنقاذ

هذا الصبي، ويعيش في قبر الست «دواهي» أطفال كثيرون تتعامل معهم بقسوة ملحوظة، وتحقق من خلالهم ثروات؛ ما يعني أن الخطف هنا جماعي، وأن الصغار يجدون في مأوى هذه المرأة الشريرة أماناً يحافظ عليهم أكثر من الجانب الآخر من المجتمع، وأن كل هذا العدد من الأطفال يعني أن هناك أسراً فقدت أبناءها وصاروا يعملون في أعمال عديدة منافية للقوانين.

رابعاً: غالباً ما تدور الأحداث في إطار بوليسي، فطالما أن هناك عصابة، فإن أهدافها شريرة، فهم يعملون ضد القانون، ويعرضون أبناء المجتمع للمخاطر، بخاصة الأطفال سواء كانوا من الذكور أو من الإناث، وهناك فيلم حديث بالغ الأهمية باسم «أعز الولد» إخراج سارة نوح عام 2021 الذي يدور في إطار كوميدي، بطولة ميرفت أمين ودلال عبدالعزيز وشيرين ورجاء الجداوي، وهو يؤكد أن حكاية خطف الأطفال تجدد نفسها من قرن إلى آخر، فهنا تقوم مجموعة من الجدات المتقدمات في السن، بتدبير مبلغ الفدية المطلوب مقابل تحرير الأطفال المخطوفين، وتسعى هؤلاء الجدات إلى تسليم المبلغ. هنا حالة من الرضا الملحوظ من قبل الجدات، فهن لا يبلغن الشرطة، بل يقمن بإخفاء الأمر حتى لا يتعرض الأحفاد لأي خطر باعتبار أن الخاطفين يستخدمون كل أنواع الأسلحة لتخويف الأطفال، أو لإرهابهم، فبالتالي فإن حياتهم دائماً على المحك، وتقوم هؤلاء السيدات المسنات بإطلاق سراح الأحفاد وإعادة كل منهم إلى البيت. ونحن نتوقف عند هذا الفيلم باعتبار حداثته، وهو العمل الكوميدي الوحيد الذي يدور حول مسألة خطف الأطفال واتخاذهم رهائن.

عناوين الأفلام التي عُنيت بهذا الموضوع كثيرة في السينما المصرية، وهي موزعة في عقود القرن العشرين بشكل منتظم، لعل أبرزها فيلم «أولاد الشوارع» إخراج يوسف وهبي سنة 1951 ، الذي يدور حول حكمدار مدينة القاهرة الذي يضم إلى أسرته واحداً من الأبناء الذين يتعامل معهم الأب بقسوة، ويقوم باسترداد ابنه من بيت الحكمدار وكأنه قام بخطفه بشكل قانوني، وفي هذا الفيلم عبّر يوسف وهبي عن مشكلة اجتماعية راسخة ليس فقط أن الأب هو الذي قام بالخطف، بل إن الأب البديل هو الأكثر حناناً ورأفة بالولد الذي صار واحداً من الأسرة. في هذا الفيلم حاول يوسف وهبي أن يجعل الوطن بديلاً للطفل عن قسوة أبيه، فالوطن هو الذي يمنح الحنان والعطف، أما الأب الحقيقي فهو يرى أن ابنه يمكن أن يجلب له بعض المساعدة في طموحاته الخارجة عن القانون.

خامساً: ليس شرطاً أن يكون الخاطف شخصاً شريراً، أو مجرماً يبحث عن الفدية، وعليه فإن أسباب الخطف متعددة، ومن بينها مثلاً شخصية المرأة العزباء في فيلم **«آخر الرجال المحترمين»** إخراج سمير سيف سنة 1983، فالطفلة المخطوفة هي واحدة من أبناء المدرسة التي

في فيلم «ملاك وشيطان» كانت الطفلة المخطوفة سبباً في توبة المجرم

السينما العالميـــــة أيضاً تناولت ظاهرة خطف الأطفال

جاءت في رحلة إلى معالم القاهرة، في حديقة الحيوان تقوم امرأة وحيدة بتقديم بعض الهدايـــــا، لتغريها وتصحبها إلى البيت، هذه الطفلة هي ابنة أسرة من الصعيد، يعني هي الابنة والشرف، والثأر ورم توحة بعودة نسمة إلى زميلاتها ولعلهم سوف يستكملون الرحلة.

لعل وجود ممثلة صغيرة السن أمر بالغ الصعوبة في تصوير أفلام عن اختطاف الصغار، وأذكر أنه في الندوات المخصصة لمناقشة هذا الفيلم في مهرجان الإسكندرية فإن الجميع أعرب عن استيائه لأن الطفلة التي قامت بالدور كانت معدومة الموهبـــــة، واتفق على هذا بطلا الفيلم وبوسي، لذا لم نرها في أفلام أخرى، وهو عكس الكثير من الطفلات الأخريات على رأسهن فيروز، هذه الطفلة التي تم خطفها في أغلب الأفلام التي قامت ببطولتها، وتربت مع أب بديل، بينما كان الأب الحقيقي شديد القسوة، وكانت هي بمثابة ابنة الخطيئة في فيلم «دهب» مثلاً، والرضيعة التي توضع على باب المسجد في فيلم «ياسمين»، حيث إن قصص الأفلام في تلك الفترة كانت تفضل وضع الأطفال عند أبواب المساجد بدلاً من خطفهم، وهؤلاء الصغار كان من السهل عليهم العثور على الأب البديل، الذي يعتني بالهدية التي جاءته من السماء، فيبقى عَزَبًا من أجل كل من «ياسمين» و«دهب»، وقد أجادت فيروز أداء هذه الشخصية مع أنور وجدي أو من دونه، مثلما حدث في فيلم «صورة الزفاف» إخراج حسن عامر سنة 1952، حيث يقوم محمود المليجي بدور الأب البديل الذي يتقدم لخطبة امرأة انفصلت عن زوجها وغاب عنها طويلاً كي تتفرغ لتربية ابنتها، ويحاول المليجي التقرب إلى الأم ليتزوجها، وعندما ترفضه يختطف ابنتها ويحبسها في مكان غير لائق، ويحاول إيهام الأم بأنه يبحث عن الصغيرة، لكن الأب الحقيقي يظهر فجأة من دون أن يعلم أنه الوالد الحقيقي للفتاة المخطوفة، فيعزم على استعادة زوجته وابنته، وينقذ الصغيرة، وتعود الحياة السعيدة إلى الجميع.

الاختطاف هنا يعني أن الفدية لا تتجاوز أن تكون موافقة الأم على أن

تتزوج الرجل الذي يطلبها، ولا شك في أن المصادفة هنا لعبت دوراً في عودة الرجل إلى زوجته ويفاجأ أن لديه ابنة، وقد وجدنا في هذا الفيلم أشخاصاً عديدين لعبوا دوراً سالباً في حياة الطفلة، منهم جدتها التي استنفرت أباها وعاشت مع ابنتها وحفيدتها من دون رجل يمنحهن الحنان.

هذه الشخصية جسدتها فيروز في أكثر من فيلم، تلك الموهوبة الصغيرة التي كانت تغني وتقلد الصغيرات الشهيرات، وتحب أباها البديل، وتجمع بينه وبين حبيبته، كان عليها أن تغير من القناع الذي ترتديه وأن تكون أكثر بنات السينما المصرية حزناً وكآبة، ففي الفيلم الأول الذي أخرجه عاطف سالم سنة 1953 باسم «الحرمان» كان هناك أب يعيش مع ابنته وحدهما بعد أن هجرته زوجته إلى الإسكندرية، وفي إحدى المرات تسببت الطفلة في إصابة أبيها إصابة تصورتها بالغة الجسامة، فهربت من البيت خوفاً على نفسها، وركبت القطار وقابلتها امرأة شرسة جسدتها نجمة إبراهيم، التي تصرفت معها كأنها مخطوفة وعذبتها؛ ما دفع بالطفلة بالهرب إلى الإسكندرية، وتقص شعرها كالصبية وتعيش مع أسرة يتعاملون معها كأنها ولد من دون أن تعرف أن الأبوين قد عاودا اللقاء ويبحثان عنها. ليس لدينا هنا فدية، بل إن الصغيرة المخطوفة تنتقل من عالم القسوة إلى أسرة تفتقد الأطفال، فتكون هي مصدر سعادة لهذه الأسرة، حتى يتم اللقاء مع الأبوين، أي أن الأحداث تنتهي هنا بصورة طيبة من دون أي نوع من العنف.

وجود ممثلة صغيرة موهوبة في أفلام اختطاف الصغار أمر بالغ الصعوبة

سادساً: قد يكون الخاطف هو الأب، سواء كان بعد انفصال بين الأم وزوجها، أو حالة من الشك في بنوة هذا الطفل. ولعل أصغر مخطوف في السينما المصرية هو ابن المراكبي «أبو أحمد» في فيلم من إخراج حسن رضا سنة 1960، فهو عمل قائم على أساس فكرة إثارة الغيرة في قلب الزوج من طرف رجل يريد لزميله الشر، فيوحي إليه أن زوجته قد حملت من رجل آخر وأن رضيعه ليس هو ابنه الشرعي؛ ما يدفع الأب إلى أحد الأشرار ويطلب منه أن يأخذ الرضيع ويغرقه في بحر الأنفوشي. هذا الأب الذي أوعز بخطف رضيعه حتى يهرول من أجل إنقاذ حياة الصغيرة وينجح في ذلك في لحظة حاسمة، هذه اللحظة هي حصيلة انتظار للحمل استمرت لأكثر من عشرة أعوام، وأيضاً لمجموعة من حالات الوسوسة والمقالب السيئة؛ لمجرد أن شخصاً يعمل فوق المركب يطمع في أن يكون «الريّس» بدلاً من زميلة الأحق منه.

لا شك في أن هذا الموضوع يحتاج إلى دراسة أطول ونماذج عديدة، كما أشرنا أنه يتسم بالتنوع والتجدد، وفي كل حالة اختطاف هناك بصمات خاصة للظروف الإنسانية. وعلى كُلٍّ فإن الانتصار دوماً يحالف هؤلاء الأبرياء الصغار، فيعودون سالمين إلى ذويهم ويلتئم شمل الأسرة، ويجتمع الأزواج تحيطهم السعادة. وقد حاولنا التعرف إلى هذه الظاهرة التي لم يسبقنا أحد من النقاد إلى دراستها، رغم كثرة الأفلام التي تُعرض بشكل متلاحق على الشاشات ومواقع السينما.